Coptology

Ϩⲁⲛⲱϣ ⲛ̀ⲣⲉⲙⲛ̀ⲭⲏⲙⲓ

مباحثات الوحدة

مع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية

دكتور

جورج حبيب بباوي

٢٠٢٢

www.coptology.org

مباحثات الوحدة
مع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية[١]

تمهيد:

كانت زيارة البابا شنودة الثالث إلى روما في مايو سنة ١٩٧٣ حدثًا تاريخيًّا فريدًا سوف تشعر بقيمته الأجيال القادمة أكثر من الجيل الذي عاصر الزيارة نفسها، فأول بابا اسكندري يطأ أرض روما هو البابا أثناسيوس الرسولي أو أثناسيوس الأول وبعده مباشرة البابا بطرس الثاني، وبعد ١٥٠٠ سنة البابا شنودة الثالث. زيارات ثلاث، اثنتان منها قبل الانفصال والثالثة بعد الانفصال. وعلى الرغم من موجات الفرح التي طغت على كل شيء. فرح السماء قبل فرح الذين على الأرض، سعى الشيطان ووسوس بأن الاتحاد مع روما أصبح وشيكًا بل تطوَّع أحد الأخوة من الأقباط الكاثوليك ونشر مقالةً في مجلة الصلاح لسان حال بطريركية الأقباط الكاثوليك يدَّعي فيها بأن جهود إعادة الأقباط إلى حظيرة الكثلكة قد تكللت بزيارة الأنبا شنودة، وقام بعض الكهنة بل والمطارنة من الأخوة الكاثوليك بزيارات مفاجئة لبعض كنائسنا الأرثوذكسية داعين الكهنة والشعب إلى الاتحاد والتناول .. وما إليه. بل قدَّم لي أنا شخصيًا أحد كهنة إيبارشية المنيا صورة للبابا بولس والبابا شنودة أُخذت من زاوية معينة تعطي انطباعًا بأن البابا شنودة وقف

(١) مقال منشور في مجلة مرقس عدد ١٦١/١٦٠ مايو / يونيو ١٩٧٤.

خلف البابا بولس أثناء الاحتفال بذكرى نياحة القديس أثناسيوس الرسولي، وهو أمرٌ لم يحدث فقد جلس كلٌّ منهما على كرسي من نفس الطراز والحجم واللون وعلى نفس الارتفاع، وكاتب هذه السطور كان يقف خلف البابا شنودة يحمل الحية شعار بابا الإسكندرية .. لكن كل هذه الاشاعات الخبيثة والايحاءات الشريرة لم تمنع اللقاء ولن تحول دون عقد مباحثات في المستقبل القريب والبعيد.

اجتماع القاهرة مارس ١٩٧٤ بعد اجتماع روما مايو ٧٣:

كان الاجتماع الأول شبه الرسمي في روما مايو سنة ١٩٧٣ والذي اتفق فيه الطرفان على تكوين لجنة لدراسة الخلافات اللاهوتية وهي التي اجتمعت في ٢٦ مارس ٧٤ بالأنبا رويس بالقاهرة. يهمنا أن نسأل سؤالًا هامًا. **ما هي هذه الاختلافات وما هي طبيعتها؟**

الخلافات وطبيعتها:

الخلافات بيننا وبين روما بدأت سنة ٤٥١ وعلى أثر قرار مجمع خلقيدونية المشؤوم بحرم القديس ديوسقوروس وإقرار عقيدة الطبيعتين في السيد المسيح كتعليم رسمي في الكنيسة.

لم يكن خلافنا مع روما وحدها وإنما كان مع الكنائس البيزنطية التي لا نتعرض لها بالحديث هنا لأننا نتحدث عن الأخوة الكاثوليك فقط.

ومنذ ذلك التاريخ ٤٥١ والتباعُد يزداد، ذلك أن الانقسام الذي حدث، عزل بين الكنائس الشرقية الأرثوذكسية والكنائس البيزنطية التي تدور في فلك القسطنطينية والكنائس الغربية التي تدور في فلك روما. مع روما زادت الهوة بعد

ذلك بظهور عقيدة رئاسة بابا روما على كل كنائس العالم وانبثاق الروح القدس من الآب والابن – والحبل بلا دنس – والمطهر والغفرانات. وقد يبدو لنا أن هذه الخلافات سطحية لا قيمة لاهوتية لها، ولكن ذلك ليس صحيحًا بالمرة وإلَّا لماذا تتمسك بها الكنيسة الرومانية.

الخلاف حول طبيعة المسيح:

كان أساسيًا في القرن الخامس وما بعده، فهو خلاف على فهم طبيعة الاتحاد بين اللاهوت والناسوت في المسيح، وعلى طبيعة هذا الاتحاد ونوعيته تقوم كل أسرار الكنيسة من معمودية وتناول .. الخ. فلو أن الناسوت انفصل عن اللاهوت بالمعنى الذي نادى به نسطور، ولو أن اللاهوت ابتلع الناسوت بالمعنى الذي نادى به أوطيخا "نقطة الخل في محيط من الماء" لتعذَّر أن نسمي الكنيسة جسد المسيح، ذلك أن اتحاد المؤمنين مؤسَّس على اتحاد اللاهوت بالناسوت في ربنا يسوع. ففي المسيح الإله المتأنس يتم غرس كل المؤمنين في جسده لينال كل غرس، الحياة الإلهية التي ليس لنا حق فيها إلَّا من خلال ناسوت المسيح وحده.

واتحاد اللاهوت بالناسوت هو أيضًا يؤثر في معموديتنا ذلك أن أي انفصال بين اللاهوت والناسوت يعني أننا نُدفَن مع إنسانٍ ونُصلَب مع إنسانٍ، وبالتالي لن تكون لنا قيامة الحياة الجديدة (رومية ٦) ذلك أن الذي يجعل الموت والدفن والقيامة مع المسيح ممكنة هو أننا عندما نموت ونُدفن معه في المعمودية نموت ونُدفن معه كإله متأنس اتحد بنا عندما شاركنا طبيعتنا لكي نتحد نحن به ونصبح شركاء الطبيعة الإلهية (١بطرس ١: ١٨).

والإفخارستيا هي جسد المسيح الحقيقي. لكن ذلك الجسد لا يفيد شيئًا ما

لم يكن جسد الكلمة أو جسد الإله المتأنس. وقد أكد هذه الحقيقة القديس كيرلس الاسكندري في صراعه ضد نسطور. ناسوت المسيح بدون لاهوته لا يفيدنا بشيء. لكن ناسوت المسيح الذي هو واحدٌ مع لاهوته كاتحاد الحديد بالنار هو الناسوت الذي يعطينا الحياة الإلهية والقيامة من الموت.

الجدل إذًا حول طبيعة المسيح لم يكن جدلًا فارغًا كما يُشاع اليوم ولا كان جدلًا عقيمًا بل كان يمس موضوع الخلاص نفسه.

الخلافات الأخرى:

انبثاق الروح القدس: أُضيفت عبارة الروح القدس المنبثق من الآب والابن في قانون الإيمان في سنة ٥٨٩ مجمع توليدو Toledo وبدون رضاء الكنائس كلها مجتمعة. بل لقد عارض فيها البابا لاون الثالث. لكن مع كل ذلك صارت تعليمًا رسميًّا في كنيسة روما. فهل كل الكنائس على خطأ، وكنيسة روما وحدها على صواب؟

قانون الإيمان صاغه المجمع المسكوني الأول ٣٢٥م وثبَّته المجمع المسكوني الثاني ٣٨١ ولا يملك أيٌّ من الناس ولا أيُّ كنيسة حق حذف أو إضافة كلمة واحدة منه لأن هذا يضاد روح الشركة ويعرض وحدة الكنيسة إلى خطر الانقسام، وهو ما حدث بالفعل. التعليم بانبثاق الروح القدس من الآب وحده هو التعليم القديم السليم الذي أجمعت عليه كل الكنائس الشرقية الخلقيدونية وغير الخلقيدونية وهو يستند أساسًا إلى المبدأ اللاهوتي السليم بأن الآب هو مصدر الابن والروح فمنه يُولد الابن أزليًا، ومنه وحده ينبثق الروح أزليًا. وقد استخدمت الكتب الإلهية وكُتب الآباء كلمتي الولادة والانبثاق لكي تؤكد تمايز الابن عن الروح القدس. والادعاء بأن

الروح منبثق من الآب والابن، يجعل الابن مصدرًا لذات أقنوم الروح القدس، وبالتالي يصبح الابن آبًا بالنسبة للروح القدس، وهو ما لم تصرح به الكتب المقدسة ولو أننا افترضنا جدلًا أن الروح منبثق من الآب والابن، فما أثر ذلك على الحياة المسيحية نفسها؟ تعلِّم الكتب المقدسة وتعاليم الآباء أننا نشترك في الآب بالابن وبالروح القدس. أي أن الروح القدس يقودنا إلى الابن والابن يقودنا إلى الآب. فالحياة الإلهية هي حياة تبني للإنسان بالروح القدس وفي المسيح لكي يصل الإنسان إلى الآب نفسه. إنها عودة الإنسان إلى الله الآب الذي منه وحده كل أبوة. ولهذا وحده لا ترضى كل الكنائس على هذه الإضافة.

وهناك اتجاهٌ الآن مصدره بعض عبارات وردت في كتابات الآباء الشرقيين وبالذات القديس كيرلس الإسكندري إلى أن الروح القدس منبثق من الآب في الابن، وربما أمكن للكنائس الشرقية أن تتصالح على هذا الأساس مع الكنائس الغربية الكاثوليكية والبروتستانتية، ومع ذلك فهذا التعليم مختلف عن تعليم الانبثاق من الآب والابن (١).

رئاسة بابا روما على كنائس العالم:

لا يعرف التقليد الشرقي على وجه الإطلاق أي دعوى برئاسة إنسانٍ ما كائنًا مَن كان على كنيسة المسيح في كل أرجاء العالم لا بطرس ولا غيره. لا يرأس الكنيسة إلَّا المسيح ولا رأس إلَّا المسيح، وجسد المسيح الواحد أي كنيسته ليس لها رأسين أحدهما منظور في روما والآخر غير منظور في السماء [**بهذه المناسبة نحذِّر**

(١) أنظر في هذا الموضوع كتاب العنصرة للأب متى المسكين ص ١٥، ١٦ رسالة بيت التكريس – ٢ سنة ١٩٦٠، وكتاب الايمان بالمسيح ص ٣٤ – ٣٨ لنفس المؤلف (١٩٧٠).

القارئ من استعمال تعبير الكنيسة المجاهدة والكنيسة المنتصرة فهو تعبير غير أرثوذكسي ينطوي على الاعتقاد برئاسة بابا روما] وقد عاشت الكنيسة خمسة قرون من الزمان لا تعرف عن رئاسة أحد من الناس عليها حتى طلع أسقف روما أنوسنت الأول ٤١٦ بدعوى مؤداها: "مَن الذي لا يعرف ولا يشعر بما أُعطى لبطرس أمير الرسل وما تحتفظ به كنيسة الرومانيين و .... رسالة ٢٥: ١.

ولم يكن العالم المسيحي يجهل سلطة بابا روما على إيبارشيات الغرب. لكن الدعوى الجديدة التي تطالب بها روما هي رئاسة لا على كنائس الغرب، بل على كل أرجاء المسكونة.

والتقليد الشرقي منذ أكليمنضس الإسكندري حتى هذه اللحظة لا ولن يعترف برئاسة بابا روما. لم يعترف بها آباؤنا ولن نعترف بها نحن حتى آخر لحظة في حياتنا. أن تدَّعي روما رئاسةً على الغرب، هذا ما يسلم به التقليد المسيحي وما عبَّر عنه القانون السادس لمجمع نيقية المسكوني ٣٢٥ "فلتحفظ القواعد القديمة التي في مصر وليبيا وبنطابوليس وهي أن أسقف الإسكندرية يكون له السلطان على هذه كلها لأن أسقف روما له هذه العادة وعلى مثال ذلك فلتُحفظ الكرامة سالمة أيضًا في الكنائس التي في أنطاكية .." ومن الواضح أن المجمع النيقاوي العظيم قد حدد لأسقف الإسكندرية أن يكون له سلطان على الإيبارشيات التي تتبعه تمامًا كما لأسقف روما سلطانًا على الإيبارشيات التي تتبعه. هذا هو الوضع القديم الذي لم يسمح برئاسة أسقف على كل كنائس العالم، ولم يجهل آباء نيقية الأوضاع الرسولية ولذلك طالبوا بأن تراعي القواعد القديمة في مصر. لا أستطيع أن أصف للقارئ حيرة وعجز أساتذة التاريخ من الكاثوليك عن تفسير القانون السادس لمجمع نيقية

وهو أمر يعرفه كل طلاب التاريخ الكنسي.

لماذا نرفض رئاسة البابا على كنائس العالم؟

أولًا: لأنها لم تكن تعليمًا في الكنيسة الجامعة، وهو ما نحرص عليه نحن الأرثوذكس أي التمسك بالإيمان الذي عندنا دون نقص أو زيادة.

ثانيًا: لأن وضع الرئاسة الرومانية غريب وشاذ وهي حالة من الفوضى.

في العلم الخاص بالكنيسة "الإكليزيولوجي" فكل كنيسة حسب التقليد الشرقي لها Autocephalous أي رأسٌ واحد هو الأسقف في إيبارشيته والبطريرك بالنسبة للكنيسة. الرأس الواحد لا يعني الرئاسة بقدر ما يعني اتحاد الشعب المؤمن مع أسقفه في حياة الشركة.

والأساقفة معًا في المجمع متساوون في الكرامة. حقيقي أن بابا الإسكندرية يرأس المجمع. لكن المجمع هو أعلى سلطة كنسية في كل الكنائس الأرثوذكسية الشرقية والكنائس البيزنطية. ومن المهم أن نعرف أن هذا فرقٌ أساسيٌّ بين الأرثوذكسية والكثلكة، ذلك أن بابا روما هو أعلى سلطة في الكنيسة وليس المجمع، ولا يستطيع أحد من الأخوة الكاثوليك إنكار هذه الحقيقة. المشكلة هنا ليست الديموقراطية والاتوقراطية في السلطة. وإنما التمسك بسلطة المجمع وبصوت مجمع الأساقفة كصوت الكنيسة الوحيد المقبول، مصدره الإيمان بأن الكنيسة شركة Communion وأن السلطة تنبع من الشركة وليس العكس. فالسلطة الكنسية هي تعبيرٌ عن الاتفاق. هذا الاتفاق يُضفي على كل القرارات صفة الشرعية والأرثوذكسية، لذلك حرَّمت [مع تهديد بعقاب شديد هو القطع] القوانين الكنسية أن تتم محاكمة أي مسيحي أسقفًا كان أم علمانيًا أمام فرد واحد ولو كان البابا

نفسه. ذلك أن الحكم هو لمجمع الإيبارشية أو مجمع الأساقفة لأن الذي يعطي صلاحية للحكم على مسيحي واحد هو اتفاق الكنيسة على هذا الحكم، وهذا الاتفاق بالطبع يحرسه التقليد (العقيدة – القوانين ... الخ).

رفضُ رئاسة البابا هو تمسُّك بالنظام الكنسي الرسولي وهو رفضٌ لصوت الواحد وتعليم الواحد الذي يعلو على صوت الكل وتعليم الكنيسة الجامعة. والأرثوذكسية ترفض رئاسة البابا لأنها مرتبطة بموضوع العصمة، وكلاهما حجر العثرة في تقدم أي حوار عن الوحدة. الأخوة الكاثوليك دأبوا على المناداة "بالاتحاد مع روما" وهو نداء غريب على الآذان الأرثوذكسية. الوحدة المسيحية ليست اتحادًا مع روما وإنما اتحاد كل الكنائس بعضها ببعض وفي المسيح وعلى أساس الرسل والأنبياء. والوحدة مع روما هي صيغة مخفَّفة لموضوع رئاسة البابا الذي سنعود إليه في مقال مستقل.

الحبل بلا دنس:

تعلِّم الكنيسة الرومانية أن العذراء مريم تحررت من الفساد البشري الذي ورثه كل البشر عن آدم منذ الحبل بها في بطن أمها. ولما كانت خطيئة آدم تنتقل عن طريق التوالد ومن الضروري أن يكون المسيح له المجد بلا خطيئة، لذلك يجب أن تكون والدته بلا خطيئة أيضًا. شاع هذا الاعتقاد في القرنين الثاني عشر والثالث عشر لكنه لم يُناقَش إلَّا في سنة ١٤٣٩ في مجمع بازل المشهور. وفي سنة ١٤٧٦ قرر البابا الروماني سكتوس الرابع الاحتفال بعيد الحبل بلا دنس وفرض البابا الروماني أكليمنضس الحادي عشر في سنة ١٧٠٨ الاحتفال بالعيد على كل الكنائس الكاثوليكية. لكن الأمر لم يتقرر كعقيدة رسمية إلَّا في سنة ١٨٥٤ عندما

أذاع بيوس التاسع منشوره المشهور Ineffabilis Deus ودخلت العقيدة إلى اللاهوت الكاثوليكي.

حسب التقليد الشرقي، لا تنتقل الخطيئة بالتوالد وإنما الفساد البشري هو غياب النعمة الإلهية وبالتحديد هو غياب الروح القدس الذي فارق الإنسانية ولم يسكن فيها بعد السقوط وأُعطيَ بصورة جزئية للأنبياء وبعض الملوك وبعض الأتقياء في العهد القديم. فخطيئة آدم ليست شيئًا يرثه الإنسان مثل الأمراض الوراثية وإنما هو مجيء الإنسان إلى العالم محرومًا من النعمة. ولعله قد حان الوقت الذي يراجع فيه بعض اللاهوتيين الأرثوذكس موقفهم من تعاليم قديس الغرب أوغسطينوس وبالذات تعليم الخطيئة الأصلية.

إن نظرةً واحدةً على كتاب تجسد الكلمة للقديس أثناسيوس الرسولي وبالذات فصل ١ – ٢١ تقنعنا بأن التقليد الشرقي لا يعرف شيئًا عن فكرة الوراثة وإنما يرى السقوط في ابتعاد الإنسانية عن الله وفي حرمان البشرية من النعمة الإلهية. ويلاحظ قارئ تجسد الكلمة أن أثناسيوس لا يذكر صراحةً ولا ضمنًا أي شيء عن:

١- خطيئة آدم أو سقوط آدم، بل يتحدث عن البشرية وكثيرًا ما استخدم كلمة "نحن" أو "البشر".

٢- لا يربط بين السقوط والوراثة بالتوالد، وإنما يربط بين السقوط وانعدام مشاركة الإنسان لله، وهي حالة الموت وعلى القارئ ان يراجع هذه النصوص:

> "ولكن لعلمه (الله) أن إرادة الإنسان يمكن أن تميل إلى إحدى الجهتين (الخير والشر) سبق فدعَّم النعمة المعطاة له بالوصية .. وإذا حفظ النعمة واستمر صالحًا استطاع أن يحتفظ بحياته في الفردوس ..

فضلًا عن الوعد بعدم الفساد في السماء أما إذا تعدى الوصية وارتد وأصبح شريرًا فليعلم بأنه يجلب على نفسه الفساد بالموت الذي كان يستحقه بالطبيعة" (فصل ٣: ٤).

من الواضح أن أثناسيوس يرى أن البقاء في حياة الخير سببه النعمة الإلهية وأن العودة إلى الموت هي عودة إلى الحالة الطبيعية للإنسان. راجع بدقة:

"لأنهم (البشر) إن كانوا بحضور وتعطف الكلمة قد دُعُوا إلى الوجود من الحالة الطبيعية الأولى وهي عدم الوجود فإنهم متى تجرَّدوا من معرفة الله عادوا إلى العدم لأن كل ما هو شر فهو عدم وكل ما هو خير فهو كائن وموجود. ولذلك كان يجب أن تكون النتيجة بطبيعة الحال الحرمان الأبدي من الوجود طالما أنهم (البشر) كانوا يستمدون وجودهم من الله .. وبكلمات أخرى يجب أن تكون النتيجة الانحلال والبقاء في حالة الموت والفساد" (فصل ٤: ٥) راجع فقرة: ٦ من نفس الفصل ص ١٩ في ترجمة القس مرقس داود.

ومن الواضح أن أثناسيوس يتحدث عن معنى آخر للسقوط غير المعنى الشائع اليوم في الأوساط الأرثوذكسية، وهو بكل أسف تعليم أوغسطينوس الذي لا تُعد كتبه من مصادر اللاهوت في الشرق. التعليم الشرقي الأرثوذكسي كما ذكره كل آباء الشرق هو فساد الطبيعة الإنسانية بسبب الحرمان من النعمة، وقد جاء الفساد عندما مال الإنسان إلى الشر ورفض الله. (راجع الفصل الخامس كله من تجسد الكلمة) وبالتالي أصبح على الإنسان أن يحيا حياة طبيعية Natural حسب مقتضى الطبيعة التي ليس من طبيعتها عدم الفساد أو عدم الموت. ذلك أن عدم الموت أو عدم الفساد هما من الصفات الإلهية التي تُمنَح للإنسان، ولم يكن عدم الموت صفة أساسية للإنسان أُعطيت له عندما خُلق، أو بكلماتٍ أخرى، طبيعة

أصلية Original. لو كان عدم الموت صفة أصلية للطبيعة الإنسانية، فكيف حُكِم على الإنسانية بالموت. هنا يتعارض سقراط مع المسيح، أو الفلسفة اليونانية مع الكتاب المقدس، فالنفس الإنسانية ليست خالدة Immortal وإنما يُعطى الخلود لها كمنحة وهبة من الآب في ابنه يسوع المسيح "لأن أجرة الخطيئة هي موت وأما هبة الله فهي حياة أبدية بالمسيح يسوع ربنا" (رومية ٦: ٢٣ - راجع النصوص الأخرى التي تؤكد ان الحياة الأبدية أو الخلود يُعطى للإنسان متى ١٩: ١٦ — ٢٥: ٤٦، مرقس ١٠: ١٧ — لوقا ١٠: ٢٥ — يوحنا ٣: ١٥ — ٤: ٣٦ — وبالذات يوحنا ٦ حيث يؤكد الرب أن من يأكل جسده له حياة أبدية ٦: ٥٤ وأن الرب يعطي خرافه حياةً أبدية ١٠: ٢٨. راجع أيضًا يوحنا ١٠: ٢٨ — ١٢: ٢٥ — ومتى ١٧: ٢ و٣. الحياة الأبدية هي معرفة الآب والابن، والمعرفة هي مشاركة على النحو الذي قرره أثناسيوس. والبيت الأبدي غير المصنوع بيد هو الآب نفسه (٢كورنثوس ٥: ١) وهو صدى لكلام المسيح: "إليه نأتي وعنده نصنع منزلًا" راجع أيضًا ١تيموثاوس ٦: ١٢ وفي نفس الاصحاح يؤكد الرسول أن عدم الموت هو لله وحده ٦: ١٦ و٦: ١٩ وفي ٢تيموثاوس ٢: ١٠ يؤكد الرسول أن المختارين سيحصلون على خلاص في المسيح مع مجد أبدي. والحياة الأبدية هي الرجاء الذي نتطلع اليه دائمًا (تيطس ١: ٢ — ٣: ٧ — عبرانيين ٥: ٩ — ٦: ٢ — ٩: ١٢ — ٩: ١٥ — ١بطرس ٥: ١٠ — ١يوحنا ١: ٢ — ٢: ٢٥ — ٣: ١٥ — ٥: ١١ — ٥: ١٣ — ٥: ٢٠).

لذلك عندما جاء الملاك إلى العذراء مريم قال لها إن "الروح القدس سوف يحل عليك وقوة العلي تظللك" (لوقا ١: ٣٥). وعندما حلَّ الروح القدس على

العذراء فقد منحها كل النعم الخاصة التي أهَّلتها لأن تكون والدة الإله. وكل عبارات الآباء الشرقيين عن العذراء البريئة من العيب أو بلا دنس .. الخ ليست إشارات إلى التعليم الكاثوليكي، لأن الآباء الشرقيين لم يعرفوا شيئًا عن الحبل بلا دنس، وبالتالي لا يجوز أن تؤخذ عبارات من كُتب رجال لم يعرفوا شيئًا عن عقيدة معينة على أنهم يؤيدون هذه العقيدة.

ونحن نرفض عقيدة الحبل بلا دنس لأننا على يقين من أن العذراء خلصت بالمسيح وأنها مثل الرسل وكل القديسين أخذت عدم الفساد بحلول الروح القدس عليها قبل الحبل بالمسيح وفي يوم العنصرة أعمال ١: ١٤ ولو كان هناك وسيلة أخرى غير التجسد والصلب والقيامة وحلول الروح القدس لتحرير الطبيعة البشرية من الفساد، فلماذا كان هذا العناء. والاعتراض على الحبل بالعذراء بدون خطيئة، منطقيًا، يجب أن يمتد ليشمل كل الأجيال الذين سبقوا العذراء مريم وهو اعتراض سليم ومنطقي مع أن سلسلة أنساب المسيح فيها من لم تكن حياته طاهرة مثل ثامار ... الخ.

المطهر والغفرانات:

حسب تعليم الكنيسة الكاثوليكية هناك مرحلة للتطهير بعد الموت بعقابٍ في نار المطهر أو آلام أخرى تطهِّر النفس من أدرانها وتؤهِّل الإنسان للمثول بين يدي الله. وهناك فرق كبير بين اللاهوت الشرقي الأرثوذكسي واللاهوت الغربي الكاثوليكي حول موضوع تطهير النفس الإنسانية؛ ذلك أن الكتاب المقدس والآباء أجمعوا أن كل الوسائط المخلوقة لا يمكن أن تطهِّر النفس من الفساد أو تحرر إرادة الإنسان أو تساعده على رؤية الله. والسبب الواضح جدًا هو أن الله غير مخلوق ولا

يمكن الاقتراب منه بأي وسيلة بشرية كانت أو غير بشرية (ملائكية) ذلك أن النعمة وحدها، النعمة غير المخلوقة هي التي تمنح الإنسان الحياة في الله والاستقرار فيه. الابن والروح القدس وحدهما هما اللذان يمنحان الإنسان الشركة في الآب السماوي. ولهذا وحده يؤكد الكتاب المقدس والآباء أنه لا خلاص إلَّا بالمسيح وحده وأنه لا خلاص إلَّا بالنعمة الإلهية. من هنا يؤكد التقليد الشرقي أن النار مادية كانت أم غير مادية لا يمكن أن تطهِّر الإنسان. لا يطهِّر الإنسان غير نعمة الله أو الله وحده لأن الإنسان عندما يتطهر فهو يستعد لمشاركة الله، ومَن غير الله يمكنه أن يؤهِّل الإنسان إلى مشاركة الحياة الإلهية.

لقد أذاع الغرب الكاثوليكي التعليم بالمطهر منذ بداية القرن الخامس وبالذات غريغوريوس الكبير الذي اعتمد على عبارات صريحة عند قديس الغرب أوغسطينوس (راجع مدينة الله ٢١: ١٣ – ٢٤ والخريدون ١١٠ و١١٢). وفي دفاع الكاثوليك عن هذه العقيدة يستشهدون بعبارات وردت عن كلٍّ من أكليمنضس الإسكندري وأوريجينوس. وقد ذكر الأول في كتاب المتنوعات ٧: ٦ أن نفوس الذين يموتون على فراش الموت دون أن يكون لديهم فرصة لممارسة أعمال التوبة سوف يتطهرون بالنار بعد الموت. وأخذ أوريجينوس هذه الفكرة وطورها في عظاته على سفر العدد العظة ١٥ والعظة ٣٦ على إنجيل لوقا حيث يتحدث بصراحة عن نهر النار المحيط بالعرش الإلهي والذي لابُد وأن يعبره كل مخلوق قبل أن يقف أمام الله. وأوريجينوس وقع تحت تأثير التصوف الشرقي القديم الذي رأى في نص دانيال ٨: ١٠ "نهر نار جرى وخرج من قدام الله .." ما يؤكد أن الإنسان يقضي وقتًا قبل أن يقف أمام الله لكي يستعد فيه للمثول بين يدي الخالق وأنه في

هذا الوقت يتطهر فيه من ذنوبه التي لم يتُب عنها أو لم تكن لديه فرصة لكي يكفر عنها وقد حاول الكاردينال Newmann الانجليكاني الأصل أن يدافع عن هذه الفكرة في كتابه المعروف Dream of Gerontius الذي دافع فيه عن عقيدة المطهر بأن الإنسان مهما تقدَّس لا زال غير مؤهَّل لرؤية الله بعد انتقاله، وهي ذات الفكرة التي نراها عن أوريجينوس على وجه الخصوص. لكن علينا أن نتذكر أن المبدأ اللاهوتي السليم هو أن الله في المسيح يتبنى الإنسان في المعمودية ويغذيه بجسده الإلهي ويدعِّمه بالروح القدس نفسه وبالمواهب الإلهية. كل هذه النعم لا أثر لأي جهد بشري، أو لأي قوى مخلوقة في إعطائها، ولا يوجد على وجه الأرض مَن يستحق -نظرًا لأعماله- المعمودية أو جسد المسيح أو عطية الروح القدس. **الله يتبنى الإنسان بعمل رحمته ومحبته في المسيح لا حسب استحقاق الإنسان، ولذلك بعد نياحة المؤمن يظل ذات المبدأ ساري المفعول، وهو أن نعمة التبني المجانية هي وحدها التي تؤهِّل الإنسان للحياة الأبدية مع الله.** لقد كتب الأقباط كثيرًا ضد المطهر وهناك كتب جيدة يعرفها القارئ مثل القول اليقين في الصلاة على الراقدين لسمعان سليدس – الجوهر في بطلان المطهر لدلوار شنودة وغيرهم. ولكن علينا أن نتذكر دائمًا المبدأ اللاهوتي الأرثوذكسي وهو **أن كل الوسائل المخلوقة عاجزة عن تطهير الإنسان ولهذا وحده جاء ابن الله.**

الغفرانات: وهو تعليم انحرف بعقيدة الصلاة لأجل الراقدين عن هدفها. فنحن نذكر الراقدين لكن مَن يستطيع أن يخبرنا بما قرره الله بشأنهم. إن يوم الدينونة هو وحده الذي سيكشف عما تم بشأن الكل، ولأن القرار بيد الله وحده لا تزعم الأرثوذكسية بأن الراقدين أو الأحياء يمكنهم الحصول على غفران من أي خطيئة إلَّا

إذا كان حسب مشيئة الله. راجع صلوات التحليل في القداسات المصرية حيث يضع الكاهن نفسه مع جماعة الخطاة ويقول "إن كنا قد أخطأنا إليك". ويصلي عن نفسه وعن الشعب "طهرنا. حاللنا ..." وقد توسَّع الأخوة الكاثوليك وحددوا غفرانات تعطى لمن يتلو صلاةً معيَّنةً مع التناول بأنه يحصل على غفران ١٠٠ وأحيانًا ٢٠٠ يوم .. الخ وهي أمور يغلب عليها الطابع الغربي التجاري ولا تتفق مع الحياة الروحية، فالله يغفر عندما نتوب وغفرانه ليس مقيَّدًا بعدد الصلوات أو عدد الأيام .. غفران كامل لكل الذنوب وفي المسيح وحده الذي بدمه غفران الخطايا.

هذه هي الخلافات الأساسية التي تقف عائقًا في سبيل الوحدة والتي تحول دون قبول كنيستنا لأسرار الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، ولنا عودة لنتابع حديثنا في هذا الموضوع.

وصلاتنا إلى الله أبي ربنا يسوع المسيح أن ينعم على كل المؤمنين بالمسيح بروح المحبة وروح الحق ليرى الجميع، الحق رؤيا واحدة بمحبة واحدة. لتكمل الشركة بين الجميع في المسيح.

ملاحظة هامة حول خطيئة آدم(١)

عندما تحدثت في المقال الماضي عدد مايو عن خطيئة آدم في التقليد الشرقي فقد كان الحديث موجزًا لأن الموضوع الأصلي هو الحبل بلا دنس لكنني ذكرت بكل وضوح أن التقليد الشرقي الأرثوذكسي يؤكد أننا ورثنا الفساد والموت عن آدم لأننا وُلِدنا من طبيعة فاسدة. وما لا يقبله الآباء الشرقيون هو أننا نشارك آدم ذنبه وهو ما علَّم به أوغسطينوس وحده وما يُعرف باسم الذنب الأصلي

(١) تعليق منشور في مجلة مرقس عدد يوليو ١٩٧٤.

وفي الغرب لم يشارك توما الأكويني المعتبر قمة اللاهوت اللاتيني Original guilt رأي أوغسطينوس في مشاركتنا في ذنب آدم، بل عارضه في وضوح كافٍ في الخلاصة اللاهوتية الجزء الثالث، ولذلك عندما نتحدث في الشرق عن خطيئة آدم فنحن نقصد بكل وضوح سقوط الجنس البشري كله وما ترتب على السقوط من موتٍ وفساد انتشر في كل الطبيعة الإنسانية، وهذا ما تتفق معنا فيه الكنيسة الكاثوليكية. يمكننا أن نقول إننا في آدم سقطنا، وفي آدم حُكِم علينا بالموت، وفي آدم طُردنا دون أن نكون مشاركين لأوغسطينوس في فكرته الخاصة عن مشاركتنا ذنب آدم. ولو صحَّ تعليم أوغسطينوس عن وراثة البشرية لذات الذنب لأصبح من الحتمي أن نعتبر أن الابن يشارك أباه كل خطاياه الشخصية طالما أن الذنوب نفسها تورَّث بالتوالد، وبالتالي يصبح كلُّ جيلٍ آتٍ أتعس من الأجيال السابقة. لقد انحسر نفوذ أوغسطينوس في الغرب الكاثوليكي بعد أن اكتشفوا عمق اللاهوت الشرقي وتراثه الروحي الغني، لذلك علينا أن نتبع طريق آبائنا معلمي الكنيسة الجامعة وأن نتمسك بما علَّموا به عازلين ما هو غريب عن تعليم كنيستنا الأصلي.

وشكرًا للأخوة الكاثوليك الذين أبدوا ملاحظاتهم على ما كتبت.

د. جورج حبيب بباوي